

# أثر التفكير في خلق الله تعالى في عبودية الإنسان

السلام عليكم ورحمة الله. بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. كثيراً ما يحيث الله تعالى عباده على النظر في مخلوقاته للعظة والاعتبار؛ وذلك لأن في النظر إليها بتعقل ويتأمل ما يقوى العقيدة ويرسخ الإيمان في القلب، ثم من آثار ذلك يحدث أو تقوى الأعمال وتنتمكن. فإذا نظر الإنسان في آيات الله تعالى اعتبر واتعظ وازداد إيمانه وزادت أعماله. فمن ذلك التدبر للقرآن، يقول الله تعالى: {لَيَدْبِرُوا آيَاتِهِ وَلَيَتَذَكَّرُ أُولُو الْإِلْيَابِ} التدبر: التعقل والتفهم لمدلول القرآن. وكذلك التدبر وبذلك على أنه كلام الله، وعلى أنه منزل غير مخلوق، وعلى أننا مكلفوون بما أمرنا الله به في هذا القرآن. قال الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} فجعله على هذا الخلق، جبله على أفضل الأخلاق، ليكون ذلك سبباً في الاقتداء به في تلك الأخلاق، وفي تلك الأفعال، ليكون الذي يقتدي به حقاً من أتباعه، ومنمن يطيعه ويتأسى به. وكذلك أيضاً: التأمل والتفكير في سنته التي هي شريعته التي يبلغها إلى أمته. فالتأمل والتفكير فيها يزيد الإنسان إيماناً، ويقوى معتقده، ويرسخ الدين في قلبه، حيث إن تلك الأحاديث التي تلفظ بها تدل على غزارة علم، وعلى قوة بيان، وعلى رساخة في الفهم. وذلك لأن الله تعالى أعطاه جوامع الكلم وفواتحه . فإذا تفكر المسلم في أفلاطنه وجد فيها الدلالة على ما يثبت الإيمان، والدلالة على ما أعطاه الله تعالى من الفصاحة والبيان. ويتبع ذلك أيضاً ما أمر الله تعالى به من التأمل والتفكير في مخلوقات الله العلوية والسفلية، وإن من أقربها أن يتذكر العبد في نفسه: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ} يتذكر في نفسه: في كيفية خلقه، وفي تركيب أعضائه، فإن في ذلك آية عظيمة، وعبرة لمن اعتبر. ولأجل ذلك فإن العلماء رحمهم الله توسعوا في الكلام على عجائب المخلوقات، ومن جملتها خلق الإنسان. أقرب شيء إلى الإنسان نفسه، إذا تأمل وتفكر فيها عرف قدرة الذي خلقه، فإذا تأمل في أول أمره، أن أول أمره كان نطفة من منيٍ يُمْتَنَى {أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْتَنَى} هكذا أخبر الله: {أَيْحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَرَكَ سُدًّا أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْتَنَى}؟ ذكرها أن أحد المتكبرين وقف عند واعظ يعطى، فقال لذلك الوعاظ: ألا تعرفني؟! ألا تدراني من أنا؟! فقال ذلك الوعاظ: بل أدرى ، أنت الذي أولك نطفة مذرة، وأخرك جيفة قذرة، وحشوك بين ذلك بول وعذرة !! يعني: فكيف مع ذلك تتكبر ؟! أول الإنسان وأول مبدئه ما ذكر الله {أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْتَنَى} هذه النطفة التي تخرج من الصلب ماء مهين، لا شك أن تكونها حتى يكون منها هذا الإنسان أنه من عجائب قدرة الله. ولذلك دائماً يذكر الله الإنسان مبدأ أمره، فيقول تعالى {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَلَّمْ تَخْلُقُنَّ أَوْلَادَكُمْ، بَلَّ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ، أَنْتُمْ تَخْلُقُونَ هَذَا الْمِنْيَ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} أي: لستم تخلقون أولادكم، بل الله تعالى هو الخالق العليم، أنتم الإنسان. فأوله هذه النطفة التي تخرج من الصلب، يجعل الله تعالى فيها هذه الحيوانات المنوية تستقر في الصلب، أي: في الرحم، وبعد ذلك يطورها الله تعالى ويقلها من حال إلى حال، فيقول الله تعالى في مبدأ خلقه: {إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثَ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ} يعني: أيام آدم {إِنْ كُنْتُمْ مِنْ عَالَقَةٍ إِنْ كُنْتُمْ مُضْطَهَدٌ وَغَيْرُ مُحَلَّةٍ} هذا تطوير مبدأ أمره، ويقول في آية أخرى: {إِنَّمَا جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} هذه النطفة تستقر في قرار مكين {إِنَّمَا خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَالَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْعَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْعَةَ عَطَامًا فَكَسَوْتَا الْعَطَامَ لَحْمًا} ثم يقول الله تعالى وغير مخلفة: {وَنُفَرِّزُ فِي الْأَرْضِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجْلِ مُسَمَّى ثُمَّ نُخْرُجُكُمْ طَفْلًا} يخرجه الله تعالى طفلاً صغيراً في غاية الصغر، يخرجه الله إلى هذه الدنيا {إِنَّمَا نُخْرُجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَيَتَبَلَّغُوا أَسْدَكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ} من يموت صغيراً، من يموت متوسطاً، ومن يبلغ سن الهرم، حتى يبلغ أرذل العمر، بحيث لا يعلم شيئاً. هذا مبدأ خلق الإنسان، وهذا منتهي خلقه.